بيننا واشي
جميعنا متواطئون إلى أن يُثبت العكس
مؤمن عصام

بيننا واشي

جميعنا متواطئون إلى أن يثبت العكس

تأليف: مؤمن عصام

إهداء

إلى مَن شجعتني على استكمال ذلك العمل

هايدي سامي

ارفع العصبة عن عينك .. ماذا رأيت !؟ لم تري شيء آ مازلتُ في ضلالك ترفض تقبل الحقيقة !!؟ الحقيقة واضحه كبزوغ الشمس لمَ تصر التغافل عنها . حقيقة انك لميت وانهم لميتون ؛ قد هزمتم ، سينقض عليكم العدو عاجلاً أم أجلاً أرحل الأن انت ومَن معك و عاود الى المدينة .

- اعذرني سيدي ، لن أرحل قبل مواجهة العدو .

- ما بك أيها المتحاذق !؟ قد لقوا حتفهم مَن كان في مقدمة الجيش تبعهم ثلاث الف جندي ذهبوا ليدعموا مَن كانوا بالمقدمة ، لستُ اطلب منك العودة انه أمر من القيادة وجب عليك تنفيذ الأمر الإ لاعتبرنك خائن .

-علم سيدي جاري تنفيذ الأمر .

أغلق قائدي سماعة جهاز اللاسلكي المتهالك من ثم أمرني بجمع جنود وأمرهم بالعودة .

أخذنا ما يُمكننا أخذه مُخلفين ورائنا العتاد و أجساد مُزقت اروحها إربًا ؛ يا حسرة علينا ذهبنا لندافع عن وطننا فما استطعنا المواجهة فعاودنا لنحتمي بالمدينة .

نخطو خطوة ونأخر الأخرى بماذا سنبرر فرارنا أمام أهالي المدينة ريثما يسألوننا أين أولادهم فبمَ نحن بمجيبين ؟

آ نحدثهم بالحقيقة أننا فررنا قبل لقاء العدو أم أننا تركنا أولادهم على الجبهة لتأمينها وعاودنا ادرجنا لأن المدينة بحاجة ماسه لنا بالفعل نحن تركنا أولادهم على الجبهة لكن ليس لتأمينها بل ليلقوا حتفهم و انسحبنا في سلام .

مرتّ ليله تلاها ليلتين تلاها ثلاث ليالي ها ذا نري المدينة على مرمي بصرنا ، قد بث في نفسونا الخوف ، خوف المواجهة بأهالي المدينة يا الله تملكنا خوف الموت فانسحبنا من المعركة ركضًا ماذا الأن نخاف مواجهه الأهالي فأين سننسحب !؟

رفع القائد يديه في السماء من ثم قبض عليها فعلمنا أنه يأمرنا بوقف المسير ، نظرتُ له متعجبًا فرأيتُ في عينيه الإجابة ؛ رايته يبكي نعم انه يبكي كالطفل بماذا انا فاعل .

همستُ له بأنه يجب عليه الثبات أمامنا فرمقني بنظرته المنكسرة ، أدار القائد حصانه وخاطبنا بصوته المبحوح

-اسف لكم .. انا المخطئ ، قد اخطأت بتنفيذ أوامر القيادة بالانسحاب تاركين أخواتنا يقاتلون وحدهم على أمل أن هناك من قادم ليدعمهم حقًا اعتناق الأمل أصبح أشد خطورة من الألم الذي يعصف بك من حين لأخر . الأن سنواجه أهالينا ، سيلقون علينا التهم بأننا بلا شرف أتوسل لكم بألا تنصتوا إليهم أنتم خير الجنود ، قد فعلتم ما أمُر منكم قد نفذتوا اومري فلا بأس عليكم ، انا الذي أتحمل الذنب وحدي .

- سيدي القائد ، جميعنا معك ؛ القيادة هي التي ستتحمل الذنب وحدها نحن نفذنا ما أمُرنا به .

- نحن معك سيدي القائد

من ثم ردد الجميع في صيحه رجل واحد

- جميعنا معك

رمقنا القائد بابتسامه منكسرة وأمرنا بالسير مجددًا .

تقدمنا والخوف يُنخر عباب قلوبنا يا الله كم هو مؤلم خوف اللقاء ها ذا نعبر بوابه المدينة العتيقة متفاجئين بتجمع حشد كبير من اهالي المدينة رابضين خلف تلك البوابة في انتظارنا ، رمقنا ذلك الحشد في رهبه فرمقونا عطفًا لحالتنا.

ما أن رؤانا فبدؤوا بالتصفيق والهتاف ، قد ساورنا الظن انها احدي طرق اهانتهم لنا لكن لا كانوا صادقين في هتافهم ومشاعرهم .

انها ليست هواجس نراها بل واقع ، انهم في صفوفنا لم يهاجمونا يا الله كاد خوف اللقاء يقتلنا ما ندري أنهم سيقفون في صفوفنا .

تقدّم تسع جنود صوبنا في شكل مثلث فاقد قاعدته يصيحون في ذلك الحشد لتفريقهم حينما وصلوا الينا قال قائدهم بصوته الأجش بأن القيادة تريد رؤية قائد الكتيبة ومساعده ؛ رمقنا بعضنا استنكارًا لتعجل القيادة لرؤيتنا وإرسالها لنا تسع جنوده على وجه السرعة .

صاح قائد ذو الصوت الأجش في الحشد المتجمع قائلاً "افسحوا الطريق ... افسحوا الطريق" من ثم أمر جنوده التسع بتفريق الحشد ليتسنى الينا المرور عبرهم .

كظم قائدي غيظه من أفعال ذلك القائد الذي يظن أننا جبناء لا نستحق ارتداء تلك البزة العسكرية لكن حبذا قائدي السلام فسار خلفه في هدوء .

دلفنا ذلك المبني الخاص للقيادة العسكرية بالمدينة نتبع خطوات ذلك القائد في ذاك الممر الضخم الي أن وقف قائد امام احدي حجرات المبني وأمرنا بأن ندلفها الي أن يأتي ممثل القيادة ليتم التحقيق معنا بما حدث في المعركة .

رد قائدي مستنكرًا " تحقيق!! تحقيق ماذا أيها القائد !؟

- تحقيق خيانتكم للوطن

حينها نفد صبر قائدي حيثُ انقض مسرعًا على ذلك القائد كما ينقض الذئب علي فريسته ليناوله ما يستحقه من لكمات و ركلات جعل وجه ذلك القائد تنفجر منه الدماء كأنه أنبوب ماء ثُقب جزء منه فاندفع الماء منه دفعًا ، سرعان ما انقضت على قائدي من الخلف لأرفعه من ذلك الجسد الهامد علي الارض مبعد اياه عنه ، طلبتُ منه أن يهدأ .

شعرتُ بفواهه مسدس مواجهه خلف راسي ، استدارتُ بجسدي حيث رايتُ ذاك القائد الذي كسا وجهه الدماء مصوب مسدسه نحوي قائلاً " ابتعد يا هذا إلا وكانت تلك الرصاصة من أجلك "

اسرعتُ بإخراج مسدسي من بزتي العسكرية من ثم قمتُ بسحب السبطانة مشيرًا فوهه مسدسي اتجاهه ، اتبعني قائدي أيضًا موجه فوهه مسدسه نحو ذلك القائد .

صياح جنود المبني يزلزل ازيزه الارض من تحت الاقدام حيث تقدّم جنود المبني على الفور بأسلحتهم ليطوقونا انا وقائدي أمرين ايانا بأن نخفض أسلحتنا ، دقائق معدودة مرتّ ومازال الوضع كما عليه إلي اتي صوت صياح أحدهم من أخر الممر قائلاً

" ما هذا الهراء .. ما بكم أيها البلهاء اجننتم لفعل ذلك !؟ اخفضوا أسلحتكم اخفضوهاا "

اقترب صاحب ذلك الصياح أكثر وأكثر حتي علمنا انه ممثل القيادة العسكرية .

رمقنا في غضب ريثما رأي الدماء على وجه ذلك القائد قائلاً في نبرة غاضبة مرة اخري

" آ لم تنصتوا إليِ قلتُ لكم للتو اخفضوا أسلحتكم "

اطاعنا أمره خافضين أسلحتنا من ثم اتبعنا اولئك الجنود الذين طوقونا بما فيهم ذلك القائد ذو الوجه المهشم .

- لن اناقشكم بمَ حدث هنا لكن سنناقش ذلك فيما بعد ريثما تنتهي فترة الحرب وستكون عواقبه وخيمه الأن ارجو جميع الجنود الانصراف إلا القائد حازم عباس ومساعدة احمد عبدالحميد .

دلف ممثل القيادة الحجرة فاتبعناه انا وقائدي ؛ تلك الحجرة الخالية من الديكورات والاساسات لم يكن بها إلا ثلاث مقاعد ملتفه حول المنضدة .

- اسف لما حدث ، قد كظمتُ غيظِ أمام ذلك القائد لكني لم استطع كظمه كثيرًا أمام كلامه المسموم .

- نعم سيدي ، انه مَن اخطأ بنا واتهمنا بأننا خائنين للوطن.

- قلتُ لكم سنناقش ذلك الأمر بعد انتهاء فترة الحرب الأن اجلسا .. قائد كتيبة الدفاع حازم عباس ومساعده احمد عبدالحميد ما هو تبريركم عن التقاعس والتخاذل في إرسال الدعم لكتيبة الهجوم مما ادي الى استشهاد كل مَن في الكتيبة !؟ فلنبدأ بسماعك ايها القائد

- عذرًا سيدي ، ماذا تعني بتقاعس والتخاذل !؟ نحن لبينا النداء حينما سمعنا الاستغاثة من قائد الكتيبة عمر حربي رحمه الله وسرعان ما أرسلنا ثلاث الف جندي ليدعمهم .

- لبيت النداء !! لبيت النداء بعد ما توسل اليك قائد الكتيبة ساعتين متواصلتين على اللاسلكي دون اجابه منك.

- لا لم يحدث ذلك كانت استغاثه واحده في الساعة الثانية من ظهر يوم الثلاثاء استمعنا إليها ولبينا على الفور النداء وأمرت مساعدي بتجهيز ثلاث الف جندي وإرسالهم للدعم.

رمقنا رئيس القياده في سخريه من ثم أشعل غليونا قائلاً في سخرية منفث دخان غليونه " لبينا على الفور في تمام الساعة الثانية رائع "

- لا تعجبني نبرة حديثك

سرعان ما انفجر ممثل القيادة في قائدي قائلا بنبرة تهكميه

- ما أنت لتقل لي تعجبني أو ليست تعجبك انا هنا أمثل القيادة ، كيف تجرأ لتتحدث معي كذلك !!؟

- ما أراه في تلك الحجرة يثير استيائي ، أشعر بأنني مذنب يتم التحقيق معه .

- بالفعل أنت مذنب ، قائد كتيبة الدفاع حازم عباس ومعاونه احمد عبدالحميد انتما موجه لكم تهمه خيانة الوطن والتواطئ مع العدو بعد تقاعسكم عن إرسال الدعم لكتيبة الهجوم رغم طلبات الاستغاثة المتتالية التي طلبها القائد عمر حاربي ما بين الساعة الثانية عشر ظهرًا الى الساعة الثانية ظهرًا .

سرعان ما اجبتُ قائلاً " لا لم يكن هناك استغاثات أخري سوي استغاثه واحده في الساعة الثانية التي لبينا النداء بها .

- بالضبط سيدي ، لم يكن هناك سواها .

- كيف ذلك !؟ تواصل معنا القائد عمر حاربي واخبرنا بذلك ما عساه أن يكذب !!

لحظات من الصمت تمر فازداد تشحن الهواء بموجات الغضب التي تُبث من النفوس .

- قد تذكرت سيدي ما حدث ، جهاز اللاسلكي تعطل عن الإرسال و الاستقبال لذلك لم نستقبل الإغاثة .

- تعطل !؟ آ تتعطل الأجهزة من تلقاء نفسها أم ماذا سياده القائد ؟

تدخلتُ في أطراف الحديث قائلاً

- نعم قد تعطل الجهاز ريثما وصلنا معسكر الدفاع ، اتخذ كل مَن بالكتيبة موقعه فكان موقعي أعلي المنحدر . كنتُ احمل حينها جهاز اللاسلكي أثناء صعودي المنحدر قد تعثرت قدامي و سقطت فارتطم جهاز اللاسلكي بالأرض مما ادي الى تعطل دائرة الإرسال و الاستقبال بداخله .

اكمل قائدي الحديث مجيبًا " قام بإصلاحه حينها جندي احمد سامح طبقًا لمَ درسه في القيادة عن تعطل اجهزه اللاسلكي "

حامت نظرات ممثل القيادة لنا في دهشه كأن ذلك الأمر لم يكن في الحسبان ، ظل ينظر لنا لحظات دون أن ينبت ببنت شفة يحاول جمع أفكاره من ثم قال لنا

- سيتم استجواب الجندي احمد سامح عن ماهيه ما حدث ؛ أرجو منكم البقاء بالحجرة الى أن أعود .

خرج ممثل القيادة على عجل من أمره وبقينا بالحجرة ننتظر عودته .

أخذنا نراقب عقارب ساعة الحجرة وهي تسحب الدقائق واحده تلو الأخرى ، قد سئمنا الانتظار مرتّ ثلاث ساعات ولم يعود ممثل القيادة لعنه الله .

انصتنا إلى صوت تلك الخطوات المترنمة التي يصنعها حذاء أحدهم خلف الباب ها ذا يُفتح الباب ويدخل ممثل القيادة الذي طال انتظاره .

- أعتذر عن التأخير ، قمتُ باستجواب جندي احمد سامح عن ماهية الأمر مؤكد لنا ما حدث لجهاز اللاسلكي طبقًا لقولكم وتم مناقشه الأمر مع القيادة و اجتمع الرأي على تبريئكم من تهمه الخيانة للوطن و اعادتكم مرة أخري للخدمة .

رد قائدي على مضض " تبريئكم من تهمه الخيانة !! يا الله كيف تظنون بنا ظن السوء ذلك !؟ كيف نخون وطننا واهلونا !؟ هاا كيف !؟ "

- التمس لنا العذر سيادة القائد ، تم إبلاغ القيادة بأنك لم تجيب على الاستغاثات المتتالية من القائد عمر حاربي بماذا تريدنا أن نعتقد !؟ أعتذر لك على ما حدث .

- لا بأس لكن هناك امرًا قد لاحظته قبل أن ينقطع الاتصال بالقائد عمر حاربي ، أثناء المعركة قال عمر لي "اللعنة انهم يصطادونا كما يصطادوا الطير كيف لهم أن يعلموا مواقع اختبائنا قد قتلوا مَ.... " من ثم انقطع الاتصال

- ما الأمر الذي لاحظته سيادة القائد !؟

- بيننا واشيِ سيدي ، قال عمر رحمه الله أنهم يعلموا مواقع اختباء الكتيبة ويصطادوهم كما يصطادوا الطير فيما معناه أن هناك واشي أبلغ العدو بأماكن تمركز الكتيبة فباغتهم العدو و انتصر عليهم .

حدقتُ إلى قائدي في ريبة ، كان حديثه أشبه بالقنبلة التي انفجرت في وجوهنا فاخذ صداه يتردد في أرجاء المكان .

اجاب عليه ممثل القيادة متلعثمًا بحديثه

سأ .. سأخب... سأخبر القيادة و سنتفقد ذلك الأمر ؛ تم تكليف كتيبتك سيادة القائد بالإضافة الى كتيبة أخري ستنضم تحت قيادتك تأمين أسوار المدينة .

- عُلم سيدي ، سنتولى ذلك الأمر .

كان الظلام قد هبط ، واضيئت الاضواء معطية ذلك الجو الكئيب خارج أسوار المدينة التي تُنار بضوء خافت .

نظرنا إلى القمر الذي أطل على استحياء محاطًا بتلك الغيوم التي تحجب ضوئه رويدًا رويدًا لعلها ستمطر ، مد قائدي يده في سترته مخرج علبه التبغ من ثم اخرج لفافه التبغ صوبها اتجاه فمه ، أخرج القادحة وبيد مرتجفتين من بروده الجو قام بإشعال لفافه التبغ وبدأ بالتدخين ..

- قد زهقت الألاف من الأرواح من أجل لاسلكي لعين سقط من يداك

رمقتُ القائد غاضبًا من ثم قلتُ له ضاغطًا على كلماتي

_ تعثرت قدامي أثناء صعودي المنحدر فسقط

نفث القائد دخان لفه التبغ في وجهي قائلاً

- لـمَ تعمـد إذًا صـعود المنحـدر وكانـت اومـري حينئـذ أن تلتـف حـول المنحدر لتصعده حتي لا تتعثر قدميك اللعنتين تلك .

حـدقتُ فـي قائـدي لا أدرك بمـاذا اجيـب !؟ انـه يشك بـي .. انـه يظننـي متـواطئ مـع العدو ضد وطنـي يـا الله كيف اجـرء علـى خيانـة وطنـي الـذي نُشـأت بـه ، دقـائق مـن الصـمت مـرتّ كأنهـا حقبـة مـن السـنوات .

- ماذا تعني سيدي القاا

سـرعان مـا رفـع قائـدي إصـبعه إلـي شـفتيه ليمنعنـي مـن اسـتكمال الحـديث حيـثُ وجدتـه يحـدق بتلـك الغابـة المظلمـة أمامنـا ، قـد شـعر إنه رأي هاله أحدهم يتحرك .

القـي قائـدي بلفـه التبـغ وتـدلَّي ليتأكـد مـن رؤيتـه ، اشـهرنا بأسـلحتنا خافضين رؤوسنا وخطونا نحو الغابة .

هنـاك صـوت خشخشـه بالفعـل ننصـت لهـا ، صـوت الخشخشـة يقتـرب أكثـر .. أكثـر .. أكثـر صـوب قائـدي كشـافه نحـو صـوت الخشخشـة تلـك فوجئنـا باننـا رأينـا جنـدي مـن العـدو كسـت ملامحـه الدهشة بأنه انكشف أمره .

هنـاك بـالطبع وقـت بـين الفعـل ورد الفعـل فكـان الفعـل أن الجنـدي تفـاجئ بنـا فتشـتت عقلـه ثـوان قبـل أن يتخـذ رد فعـل حيـث بـادره قائدي بإطلاق رصاصه عليه لتستقر بقلبه .

ازداد صوت الخشخشة بتلك الغابة لعل تلك الرصاصة التي أطلقها قائدي كشفت أمرنا ، قد عُرف قائدي بانه محنك وله خبره لا بأس بها بالحروب التي خاضها مسبقًا حيثُ القي بكشاف يده المنير بعيدًا ليشتت انتباه العدو .

- اركض يا احمد نحو المدينة ، اررررركض

ركضنا نحو المدينة لنحتمي بها قبل أن نلقي حتفًا ، قد حالفنا الحظ حينها حيث الغيوم التصقت ببعضها البعض لتحجب ضوء القمر فيعم الظلام تام فلا أحد يري الأخر .

استبقنا الريح ركضًا قبل أن يدرك العدو بأنه خُدع وقائدي نجح في تشتيت تفكيره .

لم يلبث ثوان حتي خرج شيطان الانتقام من مكمنه ، تعالت ألسنة النار لقد صار المشهد جحيميًا حقًا .. كان يلقي العدو بكرات النار لتحرق الحقول حول المدينة بهدف اناره ذلك الظلام من ثم اتبعنا بعضهم ركضًا يطلقون علينا ذاك السيل من الرصاص على أمل ان تصيبنا تلك الرصاصات الطائشة قبل أن نصل الي بوابه المدينة .

دلفنا تلك البوابة العتيقة لاهِثين حيث تأهب الكثير من الجنود خلف البوابة في طريقهم للخروج .

صاح القائد بمَ اوتى من قوة

" اغلقوا البوابة .. اغلقوا البوابة "

اجابه احدهم " سيدي ، هناك البعض مازال في الخارج "

صاح القائد مجددًا

" سنحتسبهم شهداء .. ليس لدينا وقت لننتظر عودتهم .. أنهم يقتربون من أسوار المدينة إذا عبروا البوابة سنفقد تولي زمام الأمور وسنهزم ، اغلق الباب .. اغلق البااااب "

أغلق الجندي تلك البوابة العتيقة ، أمر القائد الجنود بالصعود اعلي الأبراج وتوجيه ضرباتهم دون رحمه لكل ما يرونه يتحرك .

" اغيثونااااا ... افتحوا لنا البااااب .... سيقتلونااا "

اصوات راح صداها وسط أصوات تلك الرصاصات التي تعج بالمكان ، الأن أدركتُ لمَ أمر القائد الجنود بالانصراف حتي لا يسمعوا لتلك الاستغاثات ويتألموا كما يتألم قائدي .

انهم يطرقون على تلك البوابة العتيقة بكل ما اوتيهم من قوة ، الخوف يمخر عظامهم ، خوف الموت ، خوف الموت دون أدنى مقاومة للعدو .

قال القائد لي بلهجة آمرة " اريد ثلاث الف جندي الأن يكونا على أهبة الاستعداد للخروج إذا لُزم الأمر "

هززتُ رأسي مجيبًا و ركض لأنفذ ما أُمرت به ، أعلم جيدًا أن القائد لا يريدني أنصت الى صراخ الرجال خلف البوابة الذين سيلقون حتفهم خلال لحظات

تشقق الظلام ونبع منه ضوء ، تشقق الخوف ونبع منه شجاعة ، الأن نري .. الأن سنقاوم .. الأن ماذا !؟ ليتني أستطيع قول الأن سننتصر ، مازالت الغيوم تحجبنا عن السماء لكن لا بأس على الأقل نحن نري .

يشق البرق السماء يتبعه هطول تلك الأمطار الغزيرة ، قد هدأ الوضع قليلاً وتوقف ضرب الرصاصات .

- من برج المراقبة الشمالي للقائد حازم عباس ، من برج المراقبة الشمالي للقائد حازم عباس

- اسمعك بوضوح ، ما الأمر !؟

- ارجو من سيادتك ان تأتي بالحال ، هناك أمر يجب رؤيته في الحال .

هرول قائدي مسرعًا كأنه في حرب مع الوقت فاتبعتُ خطاه ، صعدنا درجات البرج الحلزونية المصنوعة من الحجارة في عجله من أمرنا .

دلفنا حجرة المراقبة اعلي البرج لاهثين ، قام جنديان بالتحية العسكرية فرفع قائدي يده اليمنى مفتوحة ردًا للتحية

- ما الأمر !؟

ناول الجندي ذلك المِنْظار للقائد مشيرًا بإصبع السبابة للأمام قائلا " أنظر "

وضع قائدي المِنْظار على عينيه ما من ثوان مرتّ حتي لاحظتُ الشحوب يملأ ملامح وجهه ، أخذ ينظر بالمِنْظار ويدقق فيمَ رآه من ثم أخذ ينظر يمينًا و يسارًا .

في صمت ناولني القائد المِنْظار فأخذته و رأيت ، رأيتُ ذلك الدخان الكثيف نتيجة حرق الحقول بكرات النار اللعينة تلك حيث استخدم العدو الدخان كتغطية له للتراجع نعم أنهم يتراجعون لكنه ليس انسحاب .

أنهم يتراجعون بخطوات واثقة للخلف لابد بأن هناك خطه ينفذونها ما هذاا !؟ دققت النظر أكثر ... أكثر .. نظرتُ يمينًا ويسارًا كما فعل القائد لتأكد أن عقلي لا يهذي بأفكار مسمومة .

قوات العدو تراجعت مسافة لا بأس بها عن المدينة لكنهم لم يرحلوا بل تمركزوا هناك ونصبوا العتاد ، هكذا فعلوا في الجهة اليمني واليسري .

مهلا أنا لم أصف المدينة ، المدينة أشبه بالقلاع في العصور الوسطي قد اتخذت شكل المستطيل . تم احاطتها بذلك السور الضخم حيث طوله خمسون متر وعرضه ثمانية أمتار مما يسمح للجنود التمركز أعلى السور .

هناك ما يقارب من احدي عشر برج في النواحي الأربعة ضمنهن أربعه أبراج رئيسيه للمراقبة في كل جانب .

تعتمد مدينتنا على الحقول الزراعية بالجانب الشمالي والجنوبي والشرقي كمصدر رئيسي للغذاء بينما الجانب الغربي أراضي صخرية يصعب الحركة بها .

قلتُ في كياسة " إنها الحرب الباردة إذا "

بادرني القائد بحده " نعم إنها الحرب الباردة ، قد تمركزوا في موضع بعيد عن مدي الرصاص ... سيحاصروننا في المدينة الى أن نستسلم وندعهم يحتلونا "

رمقتُ قائدي في صمت ، قد عانق السُهاد عقلي محاولاً تخيل أسوأ سيناريو قد يحدث !؟ هل سنخضع لاستسلام !؟ إلى متي سيكيفنا الطعام والشراب قبل استسلام !؟ سنستلم عاجلاً أم اجلاً لا مفر .

حقًا الوجوم قد استحوذ علينا ، ظللنا في صمت دون أن ينبت أحدنا ببنت شفة ، ظللنا نرمق بعضنا بنظرات الحسرة بنظرات الضعف فما بإيادينا حيلة ، الألم يغلي بمرجلنا افئدتنا تحترق .

- سيادة القائد حازم عباس ، تم إبلاغنا من برج المراقبة الجنوبي بأن هناك قوات من العدو تتحرك لتمركز هناك أيضًا

- انها الحرب الباردة ، انها الحرب الباردة ، انه الحصار ، هل هناك خسائر في ارواح !؟

- عشرون جريحًا فقد سيدي ، وهناك البعض خارج أسوار المدينة فقدنا آثارهم .

- حسنا ، أبلغ القيادة بالمستجدات تلك و أبلغني بردهم

- علم سيدي

دنا قائدي من نافذة الحجرة من ثم أخرج لفة تبغ قام بإشعالها ، يراقب هطول الأمطار التي تخمد ذلك الحريق بالحقول حيثُ يقوم جندي المراقبة بإبلاغ القيادة بالمستجدات .

- تم اعلام القيادة بالإمر سيدي وسيقوم الرئيس بإلقاء خطابه في المذياع خلال ساعات وسيحدد من خلاله الإجراءات التي تم اتخاذها من قبل القيادة العسكرية .

هز قائدي رأسه بالإيجاب دون أن ينظر إلينا ، أدرك جيدًا أن القائد قد سقط في صراعه النفسي منذُ معرفة أمر استغاثة القائد عمر حربي ، قد سقط في ظلام الاحتمالات و الأفكار ليته يستيقظ ويعلم أن ذلك الأمر ليس يقع على عاتقه فأنا المخطئ .

جلسنا نصطلون بالنار التي اشعلنها بأعواد الخشب وقد تدثر كل منا كرجل من الاسكيمو حقًا الجو كان بارد ، أخذنا ذلك المذياع اللعين رفيقًا يقطع صمتنا فكننا ننصت بأذان صاغيه عن نقله المستجدات و اراء المذيع اللعين هذا الذي يبث الرعب في نفوس المستمعين وأننا سنهزم سنهزم لا مفر ، مرتّ بضع سويعات إلي أن سمعنا قول المذيع بأن الرئيس سيلقي خطابه خلال دقائق .

لا أعلم لماذا استحوذ علينا القليل من اطمئنان حين سمعنا قول المذيع أن الرئيس سيلقي خطابه ، شعرنا بأن هناك مَن سيطمئننا ، بأن هناك مَن يحمل المسؤولية مثلنا.

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

إن الرجال البواسل ، أحياءً وأموات، بنضالهم استطاعوا أن يعطوا مدينتنا قيمة اعلي بكثير مما قد نضيف أو ننتقص بقوتنا الواهنة .

منذ أيام خرج جنودنا للقاء للعدو المغير علينا لكننا هزمنا وفقدنا الكثير من الأرواح بالحرب تلك لكن لن يسعنا أبدًا أن ننسى ما فعلوه رجالنا بالحرب وبسالتهم من أجل الدفاع عن تراب الوطن ، لذلك وجب علينا أن نكرس جهودنا لهذا العمل غير المنتهي كهؤلاء الذين قاتلوا محققين بهذا تقدُم غاية في النبل .

قد باغتنا العدو على غرة فجر اليوم ، لا شك بأن هناك مَن أخطأ في تحديد الوقت الذي سيتخذه مسير العدو الى أن يصل لمدينتنا حيث حدث ما لم يكن في الحسبان فجر اليوم لكن سرعان ما أدرك جنودنا الأمر و خرج شيطان الانتقام من مكمنه فناولنا قوات العدو ما استحقته من قتل .

بكل اسي نحن الأن محاصرون في المدينة قد استخدم العدو معنا الحرب الباردة حيث تمركزت قوات العدو حول المدينة في موضع بعيدًا عن مدي الرصاص كما أننا لا نقدر على الخروج لمواجهتهم حيث لم يتبقى في مدينتنا بعد الحرب تلك الكثير من الجنود لذلك سنقبل بالحصار دون مقاومة منا الى أجل غير مسمي .

من الواجب علينا هنا أن نتفانى في إتمام المهمة العظيمة الباقية لنا ، أن نستمد قدر أعلى من التفانِ من أجل هؤلاء الجنود الذين فقدناهم بالحرب التي قدموا في سبيلها أقصى درجات الإخلاص والتفان وهو الاستشهاد من اجل رفع رايه الكرامة ، لذلك يجب أن نعتزم هنا بقوة أن هؤلاء القتلى لم يضحوا بأرواحهم هباءً واننا سنكمل المسير من أجل رفع رايه الكرامة .

من الأن المدينة في حاله حرب ، من الأن ستفرض القيادة العسكرية سيطرتها علي شتي مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية علاوة على ذلك حصر جميع المواد الغذائية بالأسواق وجمعها دون مراعاة انها ملكيه خاصة ، وسيتم توزيع على افراد المدينة يوميّا ما يكفيه لصنع وجبة واحدة تكفيه طيلة اليوم حيث اننا لا ندرك إلي متي سيطيل الحصار !؟ .

انه ليس الوقت للجدال والتشتت علينا ان نكون قلب رجل واحد في مواجهه العدو ، حفظ الله مدينتنا ، حفظ الله شعبنا ، وسلام عليكم .

اغلق الجندي المذياع مُتَمْتِمٌ بقوله " حفظنا الله "

قال الجندي الأخر في لهجة يائسة " اظن أن الرئيس حبذا السلام وتقبل الحصار "

هز قائدي راسه مجيبًا "نعم ، قد تقبل الرئيس الحصار الي اجل غير مسمي .. حفظنا الله "

سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، كنا غافلون في سنواتنا الخُضْرٍ حيث لم نفكر يومًا بتخزين المؤن إذا ضاقت بنا الأمور مثل تلك الأيام التي نحياها .

وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ تلك الفترة التي نحياها الأن ، مرتّ ليالي عجاف وفي كل ليله نقول لأنفسنا غدًا أفضل ، غدًا أفضل ، غدًا افضل ، لم نكف عن قولنا غدًا أفضل الى أن أصابنا اليأس .

الجميع يدرك ، الجميع يري ، الجميع ينصت للخطابات الرئيس التي تنص على التمسك بالأمل لكن لابد أن نفيق يومًا من ثباتنا اللعين ، لابد مواجهه أنفسنا بالحقيقة ، حقيقة أن غدًا سُرق منا ، لم يعد هناك غد ، لم يعد هناك حاضر ، لم يبقي لنا سوي الماضي ، مازال العدو يحاصرنا الى أن نرفع الراية البيضاء .

مرتّ ثلاث أشهر على الحصار قد نفذت المواد الغذائية من المدينة ، طرق الجوع ابواب كل منازل المدينة ، ما فائدة المال الأن أيها القوم .

كنتُ ادخن لفافه التبغ مع قائدي عند البوابة العتيقة للمدينة حين اندلعت ثورة الجياع التي حشدت ألاف ألاف من نساء الأرمل التي فقدنَ أزواجهن في الحرب و أولئك الصبية الذي سُرق مستقبلهم وبعض الشيوخ التي اصابتهم الشيخوخة ، يطالبونا بفتح البوابة ، أنهم يطالبونا بالاستسلام من أجل حياة أفضل لأطفالهم ليتهم يدركون أن لا حياة لهم بعد فتح البوابة ولا حياة لهم اثناء حصارهم ، الحقيقة أننا موتي نقاوم لنفسنا الأخير .

هرول قائدي مسرعًا أمرًا الجنود الرابضون أعلي أسوار المدينة بالهبوط لتكوين حاجز يفصل بين المتظاهرون والبوابة كي لا يتسنى لهم الفرصة لفتحها .

سرعان ما لبي الجنود النداء فأصبحوا يحجزون المتظاهرون عن البوابة.

" أولادنا يموتون جوعًا ... اتركوا لنا البوابة .. نطالب بالاستسلام "

تلك الهتافات التي يرددونها كيف لهم أن يطالبوا بالاستسلام !؟ كيف لأمه تطالب بمحو مستقبلها !؟ آ الجوع يدفع الفرد نحو الذل والهوان أم أنهم يفعلون ذلك من أجل أطفالهم !؟

صاح قائدي بذاك الحشد قائلاً " اهدؤا ... اهدؤا "

لا احد ينصت له ، لا احد يسمع الأخر ، تفاجئنا بأن أولئك الصبية يلقون علينا كرات النار ليفرقوا شملنا ليتسنى لهم فتح البوابة .

قد فار قائدي فائرة مُشهر بسلاحه مطلق الرصاصات في الهواء اتبعناه نحن الجنود لكن لم يتفرق ذلك الحشد ، لم تعد الرصاصات تهيبهم ، مات الخوف بداخلهم حينما استولي الجوع عليهم .

صمت ذلك الحشد قليلاً فصاح قائدي بهم مجددًا

" كيف لي أن اسمح لكم تفتحون البوابة وهناك عدو يريد الاستيلاء على المدينة ليمحو ماضيكم وحاضركم !؟ "

اجابته احدهن قائله وهي ترفع رضيعها

" وكيف لي أن أري بني يلقي حتفه جوعًا مثل ما لقيه أبيه في تلك الحرب التي انسحبت منها أنت ايها الخائن الجبان !!؟ "

رمق قائدي تلك السيدة وقد لمعت عيناه ، رأيتُ في نظراته شيطان الانتقام ، تقدم القائد بخطوات واثقه نحو تلك السيدة وقد استحوذ عليه الشيطان فاندفعتُ مسرعًا نحو القائد انا و احدي الجنود نمسك بالقائد قبل أن يفعل خطأ يُلقي عليه اللوم .

" حازم عباس الخائن الجبان ..حازم عباس الخائن الجبان"

هتف الجميع تلك الجملة من ثم انقضوا علينا

ضجيج من رصاصات يُطلق ، رصاصات تطلق ، رصاصات تطلق ، رصاصات أطلقها الجنود لتفرقه الحشد وسحب قائدنا من اياديهم .

قد سال الدم من شدقيه فامسك لاسلكي في عصبية هاتفًا

" من القائد حازم عباس للقيادة نحن نتعرض للهجوم من قبل المتظاهرون هل تسمعني "

- نسمعك بوضوح

- بماذا أنا فاعل ، أنهم لا يهيبونا ولا يهابوا الرصاص

- لك مطلق الحرية في التعامل وإبعادهم عن البوابة

أغلق القائد اللاسلكي واضعا اياه في حزام خصره من ثم اشهر بسلاحه مجددًا مُتَمْتِمٌ بقوله " فلنضع حد إذًا "

تقدّم نحو المتظاهرين مصوب سلاحه اتجاههم ، صاح بهم مجددًا " تراجعوا ، لا فائدة من حشدكم ولا هتافاتكم اللعينة تلك ، قُضي الأمر البوابة لن تُفتح "

لم يجد قائدي اجابة منهم سوي السخرية من قوله ، تقدّم أحد الصبية نحونا فاتبعه البعض .

- تراجع يا بني ، لا أريد قتلك

- لن أتراجع ايها الخائن الجبان ، سنفتح تلك البوابة شئت أم أبيت

مازال يتقدم الفتي دون تردد ، دون خوف ، دون أن يعير تحذيرات القائد اهتمامًا

- قلتُ لك تراجع يا بني ، تراجع

ابتسم الفتي للقائد في سخرية قائلا " بماذا انت فاعل ايها الخائن!؟ "

أطلق قائدي رصاصتين في عنان السماء لكي يهيبه لكن لم يعد احد يُهاب.

- آ تظنني اهاب من رصاصاتك اللعينة تلك !؟

- إذًا قضي الأمر

صوب قائدي مسدسه نحو الفتي من ثم اطلق رصاصة لتستقر بقلبه ، ارتطم جسد الفتي بالأرض مما أثار الذعر في نفوس المتظاهرين حتي أكون صادق معكم أثار الذعر في نفوسنا أيضًا . لحظات صمت عمت المكان ، الجميع يراقب ذلك القائد الذي جُن عقله سرعان ما افاقنا لأمر فتقدمنا نحو المتظاهرون مشهرين بأسلحتنا كي لا ينقضوا على قائدنا .

صوب قائدي مسدسه نحو الفتيه الذين تتبعوا قتيلهم منذ قليل فرؤوا في عيون قائدي الجنون .

صاح قائدي في الجنود قائلا بكل ما أوتي من قوة

" إن لم يتفرق ذلك الحشد خلال ثلاث دقائق أطلقوا الرصاص عليهم "

قد نجح قائدي في تفرقة الحشد بمَ فعله حقًا لم يكن هناك طريقة أخري لتفرقة ذلك الحشد إلا بقتل أحدهم .

سار قائدي نحو جسد الفتي التي تناثرت دمائه على الرمال ثم انحني يتحسس الشريان السباتي ليجد أنه مازال على قيد الحياة ، نظر قائدي في عين الفتي قائلاً في لهجة أسفه " سامحني يا بني"

اخذ الفتي يشهق انفاسه الأخيرة إلى أن فارقه السر الإلهي .

أخرج القائد اللاسلكي مخاطبًا القيادة بأن تم السيطرة على الأمر ، فطلبت منه القيادة أن يحضر للمبني الخاص بها ومعه مساعده

سرنا نحو مبني القيادة العسكرية ، لا ندرك لماذا تطالبنا القيادة سويًا فإذا كانت ستلوم القائد على قتل الفتي فلمَ تطالب رؤيتي معه أم إنها تطالبنا لأمر أخر لكن ما هو !؟ قد بُث الشك في نفوسنا ، شعرنا لو أننا سقطنا في غياهب أفكارنا لا بأس فسنعلم خلال دقائق لمَ طلبت القيادة رؤيتنا .

دلفنا المبني لنجد إحدى الجنود في انتظارنا من ثم طلب منا اتبعاه ، اتبعنا ذاك الجندي الى أن فتح لنا باب احدي الحجرات بالطابق الثاني .

قد وجدنا ممثل القيادة جالس في انتظارنا على ذلك المقعد المواجه لتلك المنضدة بجواره لوحه ملفوفه ، أبتسم لنا قائلا " تفضلا بالجلوس " مشيرًا بقبضه يده المفتوحة للمقعدين المواجهين له ؛ قد شحب وجهه عن لقائنا الأخير به .

جلسنا حيثُ أشار لنا ومازالت تلك الابتسامة على وجهه ، لم اعتاد منه ذلك فكان دائمًا صارم في معاملته .

- احسنت سياده القائد فيمَ فعلته لتفرقه ذلك الحشد

رمقنا ممثل القيادة في شك ، لم نكن نتوقع ذلك قد ظننا أنه سيلموننا على ما حدث .

اجاب قائدي في لهجة منكسرة " لم يكن هناك طريقه أخري لتفرقه الحشد سوي القتل "

- نعم ، نحن نعلم .. لذلك تركنا لك مطلق الحرية في التعامل مع الأمر

أبتسم قائدي ابتسامة باهته لكي ينهى الحديث بذلك الأمر

تابع ممثل القيادة قوله

" ما حدث اليوم جعلنا أن نلجأ للخطة الثانية التي لم نكن نرغب بها ، الأن لابد تنفذيها قبل استسلامنا "

قلتُ مستنكرًا " استسلامنا !!؟ "

- نعم يا احمد استسلامنا ، أننا نعلم ذلك منذُ بداية الحصار لكننا كنا نماطل لا أكثر . هناك أمرًا يجب عليكم فعله أنتم وما تبقي من جيشنا قبل استسلامنا فإذا نجح الأمر فقد عادت إلينا كرامتنا وإذا فشلتم في تحقيقه لن نلومكم وسنستلم حينها .

لا شك بأن الوجوم قد كسا وجوهنا ، لا نصدق ما نسمعه .

- ما المطلوب منا !؟

فكّ ممثل القيادة الرباط حول لوحه بجواره و وضعها على المنضدة ، نظر إلينا ممثل القيادة وفي عينيه التردد كأنه يبغي انهاء اللقاء دون استكمال حديثه .

قلتُ له " ما الأمر إذًا !؟ "

- الأمر هو أن عليكم الخروج للقاء العدو وتشتيته

رد القائد في لهجة مستنكرة " كيف !؟ "

- كيف !!؟ رصد البرج الغربي للمدينة بأن العدو لا يتمركز هناك بكثافة نظرًا لاحتواء المنطقة على العديد من الصخور مما يصعب على العدو التمركز هناك ، كما يدرك العدو أيضًا أن الجانب الغربي للمدينة ليس به بوابة لذلك رأي العدو توزيع جنوده على الجوانب الأخرى وأكتفي بالقليل أن يتمركزوا بذاك الجانب لأننا إذا هاجمنا فمن المستحيل هجومنا من جانب الغربي .

- إذًا فكيف لنا الخروج أيضًا !؟

أشار ممثل القيادة بسباته نحو الجانب السفلي بالخريطة قائلاً " ستخرج أنت و كتيبتك من هنا سيادة القائد حيث هناك نفق لا أحد يعلم عنه شيء سوي رئيس المدينة والقليل من رؤساء القيادة ، تم حصر عدد جنودنا الأيام الماضية وجدنا أننا خمسه عشر الف جندي ، ستعبر النفق ومعك سبع ألاف جندي سيأخذك النفق خلف الصخور ، ستجد نفسك هنا مشيرًا بسبابته بالخريطة حيث ينتهي نفق

متابعًا حديثة قائلاً

هناك في الجانب الغربي من المدينة ما لا يقل عن خمسمائة جندي من العدو متمركزون ، النفق سيخرجك خلف أولئك الجنود بمسافة مائه وخمسون متر ، عليك انت وسبع آلاف جندي مباغتتهم من الخلف مع وضع كواتم الصوت بالطبع وقتلهم جميعًا لكن عليك أن تحكم قبضتك عليهم حتي لا يتسنى لهم الفرصة بإطلاق الرصاص عليكم فينبهوا الأخرون

اجاب قائدي في لهجه متحفزه

" لا تقلق سيدي من ذلك الأمر ، ثم ماذا نفعل !؟ "

- حينما تتخلص من خمسمائة جندي ستتحرك أنت والكتيبة التي معك نحو الجنوب وستأخذ ذلك المسار

أخرج ممثل القيادة قلم من سترته و رسم على الخريطة الطريق الذي سنسلكه بين الصخور

متابعًا قوله

" ستسير مسافه كيلو متر بذلك ستكون خلف العدو من ثم ستباغتهم من الخلف ريثما البرج الجنوبي يراك تشتبك معهم حينها سيخرج ثمانية آلاف جندي من بوابة الجنوبية ليباغتوا العدو من الأمام بذلك سنكون حاصرنا العدو وتم هزيمته قبل أن يأتيهم الدعم من الجنود المتمركزة بالشرق ، حينما نتخلص من جنود العدو بالجنوب حينها سيكون تحت قيادتك خمسه عشر ألاف جندي لتصدي الدعم الذي سيأتي للجنود العدو و التخلص منهم . "

تحفز قائدي كثيرًا لتلك الخطة و ارتسمت ابتسامه على وجهه لأنه سيحارب أخيرًا

رد القائد على ممثل القيادة قائلاً " لمَ صمتوا كل هذا الوقت و اكتفيتم بجعلنا نحرس أسوار المدينة "

أجابه ممثل القيادة وفي صوته غصة

" كنا ندرس الخطة و استراتيجية العدو في الحصار لكن هناك مشكله جعلتنا نتردد في تنفيذ تلك الخطة "

قلتُ " ما المشكلة !؟ "

- ربما يأتي الدعم من الشرق سيهجم العدو بكل قوته بالطبع سيكون هناك خسائر في الأرواح لدينا فهل الجنود التي ستبقي كافية لدخول معركة اخرى مع الجنود المتمركزين في جهة الشمال !؟

بادر قائدي ليجيب بحدة " أقسم لك سننتصر عليهم وخسائر الاروح ستكون لهم وليس لنا ، دعنا نخرج فإذا هزمنا فلنا شرف المقاومة "

أبتسم لنا ممثل القيادة قائلاً " أعانكم الله ، هناك أمر نسيت قوله .. ستضعون المتفجرات في نهاية النفق إذا حدث شيء ما لم يكن في الحسبان فعليكم العودة إلى المدينة عبر ذاك نفق من ثم تفجيره "

- بإذن الله سنعود الى المدينة ومعنا النصر

- اتمني ذلك ، الأن سيادة القائد لك الخريطة لتدرسها انت ومساعدك احمد عبدالحميد و في فجر الغد ستخرج للقاء العدو

- علم سيدي

- تفضلا إذًا لدراسة الخريطه ، نتمنى لكم التوفيق

هممنا بالخروج من ثم تذكر قائدي أمرًا فوقفتُ منتظر اياه

- آ تتذكر سيدي بذلك الواشي الذي حدثتك عنه في لقائنا الأول !؟

- نعم أتذكره ما الأمر !؟

- اظن أنني علمت مَن هو الواشي

نظر لي القائد وطلب مني أن انتظره خارج الحجرة ، لبثتُ بلا حراك ارمق قائدي بعد قوله اللعين تلك من ثم خرجتُ حيث استحوذ الوجوم على ملامح وجهي .

آ مازال يظن أنني الواشي !؟ لمَ يظن بي ظن السوء ذلك !؟ لمَ يرفض الحقيقة بأن قدماي تعثرت حينها !؟ لمَ!؟ أسئلة كثيره تراودني دون أن أعلم اجابتها ، كم احببتُ ذلك القائد ها ذا نحن بمفترق الطرق وسيكون قائدي من العابرين حينما تنتهي الحرب .

خرج قائدي من الحجرة فنظر لي باللامبالاة مشعلاً لفة التبغ ثم أمرني بأن اجمع له بعض الجنود يثق بهم ليدرسوا خطة الهجوم التي ستنفذ فجر الغد .

اليوم التالي

إنه فجر النصر ، إنه فجر الحرية ، ما هي إلا سويعات قليلة لنرفع راية النصر على المدينة ، سنعلم اولئك الاوغاد درسًا عن فنون القتال . تجمع سبع ألاف جندي في الجانب الغربي كما خُطط ليله امس منتظرين قدومنا لكي نعبر النفق ، شققنا أنا والقائد طريقنا بين الجند الذين اتخذوا اوضاعَ تأهبٍ للقتال ، واعدوا الذخيرة و القنابل اليدوية والمتفجرات التي ستُوضع في نهاية النفق .

رايتُ في عيونهم التحفز للقاء العدو المنتظر ، لقاء انتظرناه ثلاث اشهر مروا كأنهم سنوات من الدهر . خاطب القائد الجنود قائلاً

" اليوم سنثأر لشهدائنا وأهلنا الذين تضوروا جوعًا الثلاث أشهر الماضية ، لا يأخذكم بالعدو رحمه ، نحن أصحاب الحق لذلك اقتلوهم بلا شفقة ، عرض النفق ثلاث امتار وطوله كيلو ونصف سنتحرك بالأسفل في ثلاث صفوف ريثما نعبر للجانب الأخر سيتخذ كل منا موقعه الى أن يخرج الجميع ، هناك أمرين أريد تأكيدهم الأمر الأول أن لا يباغت احدكم العدو إلا بأمر مني حين نحكم قبضتنا على الخمسمائة جندي بالخارج . الأمر ثاني أن تتأكدوا بوضعكم كواتم الصوت .. عُلم !؟ أجاب الجنود بصوت خافت حتي لا يتردد صداه في سكون الليل ويلاحظ أحدهم " علم سيدي القائد "

أزاح القائد البوابة الحديدية الصغيرة المدفونة تحت طبقات من الرمال ، فرأينا درجات خشبيه مثبتة في جدار رأسي . أخرج القائد كشاف اليد من بزته العسكرية ممسك إياه بيده اليسرى والأخرى يمسك بها مسدسه، صوب القائد ضوء كشاف نحو درجات الخشبية وأمرنا بإتباعه .

بقعة ضوء تتحرك عبر النفق ، تذيب ظلامًا ثم تغيب وسط ظلام جديد ، نسير في صفوف منظمة حالمين بأن نعود بالنصر .

ها ذا صلنا إلى نهاية النفق ، وضعتُ المتفجرات على جانبي النفق من ثم أمرني القائد أن يبقي جهاز التفجير معي .

صعدنا الدرجات الخشبية الموضوعة بشكل راسي وخرجنا لنحقق النصر ، خرجنا من فتحة قضبانٌ متعامدة جَدَلَ أحدهم العشب بعناية بينها سرعان ما تورينا خلف الصخور والأشجار لنؤمن المنطقة في حين يصعد الجميع .

خاطبني القائد هامسًا مشيرًا بسبابته يمينًا " اشعر بأنني رأيت أحدهم يتوارى خلف الصخرة تلك ، أشعر اننا محاصرون "

في ذات اللحظة سمعنا صوت القيادة في اللاسلكي الخاص بالقائد تطالبه بالرد

- ما الأمر !؟

أجابه احدهم في اللاسلكي في لهجه حاده

- حازم تراجع انت ومَن معك الأن ... تراااااجع قد انكشف أمركم

حينها خرج جنود العدو من مكامنهم يصوبون نحونا سيل رصاصات من ثم القوا علينا وابلاً من القنابل اليدوية ، لا احد يدرك ما يحدث قد فقدنا عقلنا أننا نُقتل دون أدني مقاومه .

- إنهم يعلمون قدومنا ، إنهم يعلمون مكان النفق ، هنااااك واشي .. هنااااك واشي

- علينا أن نتراجع سيدي القائد قبل أن نلقي حتفنا ، لن يفد إذا زاد عدد القتلى قتيلان .

- لن اتراجع يا احمد سأقوم إلى أن القي حتفي ، تراجع انت و فجر خلفك النفق .

ما أن ادار قائدي ظهره حتي وكزته بكعب سلاحي على راسه فارتطم بالأرض مغشيًا عليه

- لا استطع سيدي تركك تلقي حتفك ، سامحني قائدي

القيتُ بسلاحي حاملاً جسد قائدي بين ذراعي راكضًا في ذعر نحو النفق كأنني أم تحمل رضيعها بعد قصف منزلها ، يا الله اخطو فوق جثث جنودنا ، نظرتُ إلى درجات الخشبية التي تكومت عليها جثث الجنود في منظر بشع لا أستطيع وصفه .

خطوت على تلك الجثث حتي وصلت أسفل النفق ، ركض مهرولاً في ذاك الظلام الحالك ، ركض ، ركض إلى أن أبتعد عن مخرج النفق مسافة لا بأس بها حينها وضعت قائدي أرضًا من ثم أخرجت جهاز التفجير ضاغطًا عليه .

ارتجت الجدران النفق أثر الانفجار حتي أنصت إلى صوت ارتطام الحجارة بالأرض لابد أن النفق أغلق الأن ، حملتُ القائد مرة أخري عائدًا به حيثما أتينا .

صعدُ الدرجات الخشبية وقد استنفذت قوتي في حمل جسد القائد كل تلك المسافة ، وجدُ هناك جنود ارسلتهم القيادة لتأمين النفق احتسابًا لمرور عدو . صوب الجنود اسلحتهم نحونا الي أن تأكدوا من هويتنا فخفضوا اسلحتهم مقدمين لنا المساعدة .

- آ هناك أحد يتتبعكم !؟

اجابتُ متلعثمًا " لا ..لا .. قد فجـــــ .. قد فجرت النفق خلفي "

- اهدئ .. اهدئ الأن أنت في الديار

ساعد الجنود القائد في استعادة وعيه ، لا أعلم ماذا أعتقد القائد حينما استعاد وعيه و رأي اولئك الجنود !؟ لا اعلم بماذا خاطبهم!؟

مد القائد يده لأحدى الجنود فساعده على الوقوف ، نظر لي القائد ثم اندفع نحوي يركض مسدد لكماته وركلاته لي صارخًا في وجهي قائلاً " قلتُ لك أيها الوغد اللعين أن تتراجع وتتركني "

اتلقي اللكمات والركلات وذلك السباب من قائدي الذي أنقذت حياته للتو ، همَ الجنود نحو القائد مبعدين إياه عن جسدي المطروح أرضًا .

صرخ القائد مجددًا قائلاً " لماذا عدت بي !؟ لمااااذا ؟"

أجابتُ بصوت واهن قد تحررت من عيناي دمعة سمحتُ لها بالهروب " لم أرد أن أراك تُقتل أمامي ، قد اتخذتُك صديقي ، لم يكن لي أصدقاء غيرك ... علمت لماذا الأن "

رمقني القائد بنظرات منكسرة من ثم تقدّم نحوي يربض على كتفي قائلا بصوت منكسر " أسف يا احمد "

قد امتزج ضوء النهار مع ظلمة السماء فكونوا مزيجًا يسري عين الناظرين لكن ما فائدة النظر لذاك المزيج على أرض وطن مهزوم فما عاد شيء يسريه ، توجهنا الى مبني القيادة في عجله من أمرنا لفهم ما حدث .

دلفنا الحجرة ذاتها التي التقينا بها ليله امس بممثل القيادة ، كان يجلس على المقعد الذي اعتاد عليه ، ما أن دلفنا الحجرة نظر الينا فراينا عيونه تحمل الشرارة ، جلسنا بالمقعدي أمام المنضدة نراقب ذاك الرجل الذي أصاب الحنق منه مبلغًا عظيمًا .

- ما حدث أيها القائد !؟

- لا أدري ما حدث ، وجدنا أنفسنا محاصرون هناك

- ما حدث يا أحمد هناك !؟

نظرتُ إلى ممثل القيادة مستنكرًا ، لا أفهم ما يرميه بكلامه ذلك .

- خرجنا سيدي من النفق تبعًا للخطة حتي وجدنا أنفسنا محاصرون ، يبدو أن العدو يعلم بقدومنا

رد ممثل القيادة ضاغطًا على كلامه

- يبدو أن العدو يعلم بقدومنا !! رائع هل لك أن تفسر لي ذل---

قاطع القائد حديث ممثل القيادة مجيبًا على مضض

- بيننا واشي كما قلت لك سابقًا ، ما الجديد !؟

- الجديد هو أن الواشي قد يكون بينكم أنتم ، أحدكم متواطئ مع العدو

حدقنا للممثل القيادة في ذات اللحظة ، أنه كمثل الذي القي قنبلة فأخذ دوي انفجار يتردد صداه ارجاء الغرفة

- رصد برج المراقبة الغربي بمنتصف الليل بأن قوات العدو من جهة الجنوب والشمال أرسلت البعض لدعم المنطقة الغربية ، لم نظن لحظه أنهم تحركوا نحو النفق الذي لم يكن يعلم مكانه سواكم .

- سيدي انت للمرة الثانية تظننا أننا متواطئين مع العدو ، لمَ لا يكون الواشي أحد من رؤساء القيادات !؟
- لمَ لا يكون أحد رجالك ايها القائد !؟ لمَ لا تكون انت الواشي !؟

احتدم قائدي غيظه قائلاً بلهجه متهكمه

" لمَ سيختارني العدو لتواطئ معه وانا مجرد قائد كتيبة ما عليه سوي اتباع الأوامر لعل وعسى تكون أنت المتواطئ فانت تعلم الكثير عن شئون البلاد وأنت الذي تصدر الأوامر !؟ "

قال قائدي ما كان يجب قوله ، جميعنا متواطئون الى أن يُثبت العكس .

تلألأت حبيبات العرق على جبين ممثل القيادة فأجاب في ضجر

- إذا فالنري مَن هو الواشي ريثما ينكشف امره اعدك سيادة القائد سأجعله يتمني الموت حقًا

ها ذا قد نشب الحريق الذي لم يعد هناك أحد قادر على اخماده ، أبتسم قائدي تلك الابتسامة السمجة للممثل القيادة من ثم همَ بالرحيل

عصر يوم الهزيمة

قد علمت القيادة الواشي ، قد علم أهالي المدينة بأمر ذلك الواشي الذي تسبب في قتل الآلاف الألاف من الجنود اخرهم فجر اليوم وتسبب أيضًا تضور أهل المدينة جوعًا .

الأن احتشد أهالي المدينة في الأزقة والشوارع منتظرين أن يروا ذلك الواشي يأخذ جزاء فعلته .
رافقتُ الجنود الذين ذهبوا للقبض علي الواشي ، اقتحمنا بوابة ذاك المنزل شاهرين بأسلحتنا .

صراخ امرأة حينما حُطم الباب ورأتنا نقتحم البيت اتبعه صراخ وبكاء ذلك الطفل الذي لم يكمل العشر سنوات ريثما رأينا ، ركضت الامرأة نحو طفلها المذعور تحتضنه .

صرخت بنا الامرأة بماذا نحن فاعلون هنا !؟ أجابها ذلك الجندي ذو صوت الأجش * اين هو زوجك !؟ *

أخذ ذلك الجندي يمشط ما حوله بنظرات متحفزة تشهد وضعا مريبًا ، ثبت نظرة على باب الحجرة المغلقة فصوب مسدسه نحوها وأخذ يخطو ببطء من ثم أدار المقبض ليتراجع باب الحجرة للخلف .

دلفنا الحجرة حيث وجدنا مبتغانا نائم على الفراش ، وجهه ذلك الجندي ركلة من فوق الأغطية لجسد قائدي الذي نهض مذعورا مبسملاً محوقلاً ... حان الوقت لتنهض أيها الخائن .

تفاجئ قائدي بالجنود تلتف حول فراشه مصوبون اسلحته نحوه .

- ماذا يحدث يا أحمد !؟

رمقتُ قائدي بنظرات منكسرة متساقطه الدموع من عيناي

أجابه ذاك جندي ذو الصوت الأجش

- آ لم اقل لك في لقائنا الأول أنك الخائن !؟

انقض الجنود على القائد ليكبلوا يداه ثم تفرقنا نفتش ارجاء المنزل ، دقائق مرتّ حتي وجدنا المستندات والوثائق وجهاز للاسلكي ليس تابع لجيشنا .

نظر القائد الى ما وجدناه في ريبة ، يقسم لنا انه لا يعلم عنه شيء بالطبع لا أحد يعير ما يقوله اهتمامًا انه الواشي وقد سقط الأن .

أسرنا القائد واسرته وذهبنا بهم الى حيث يحتشد الناس ، الألم يغلي بمرجل أفئدة تحترق على مَن فقدوا احبابهم في الحرب ، لحظات من الصمت حين أقدمنا نحوهم و رؤا القائد مكبل بالقيود .

كان يقف ممثل القيادة بمنتصف الساحة يحوط به الجنود ، تبادل النظرات مع القائد المكبل بالقيود ثم أمر الجنود أن يطرحوا القائد ارضًا .

صاح ممثل القيادة بكل ما أوتي من قوة

- الأن نحن نري الواشي ، الأن نري ذلك الوغد الذي خان وطنه من أجل ماذا !؟ حفنه من المال أم وعدك العدو بالمنصب والجاه حينما يحتل البلاد .

رمقني ممثل القيادة بنظراته فعلمتُ ما يعنيه ، خطوت نحو لأناوله ما وجدناه في بيت القائد .

رفع ممثل القيادة تلك المستندات و والوثائق متابعًا حديثة

" ها ذا تلك المستندات والوثائق التي تدل على صحة حديثي ، عثر عليها جنودنا الشرفاء في منزل ذلك الوغد ."

تقدّم ممثل القيادة بخطواته نحو القائد المطروح أرضًا قائلا " من اين لك بهذا اللاسلكي أيها القائد !؟ "

صرخ القائد قائلاً

" أقسم لك اني لستُ اعلم شيء عنها ، لابد أن هناك مَن دسسهم بمنزلي ... أقسم لك لستُ الواشي "

قال ممثل القيادة في لهجة اسفة باطنها المزاح " نعم نعم أنت لست الواشي ، انا اصدقك "

ثم صاح في الحشد مجددًا

" ما العقاب الذي يستحقه ذلك الخائن !؟ "

هلَّل الجميع بحماسه وابتهاج قائلين " القتل .. القتل "

ارتسمت ابتسامه شيطانية على شفتي ممثل القيادة موجه حديثه للقائد " قلتُ لك صباحًا ريثما ينكشف أمر الواشي سأجعله يتمني الموت لذلك لن اقتلك "

حدقتُ للممثل القيادة لمَ قاله ، شعرتُ انه يحضر لأمر ما سرعان من تأكد من صحه شعوري ريثما اشار ممثل القيادة الى محاربه إشارة بدت كسهمٍ أصاب فيها فهمًا .

سحب ذلك القائد ذو الصوت الأجش سبطانة مسدسه من ثم اطلق رصاصته لتستقر فـــ .. فـــ ... ماذا فعله ذلك الوغد !؟ أنه قتل ابن القائد .

صرخ القائد بكل ما اوتي من قوة محاولاً التملص من قيوده علاوة على ذلك ايادٍ الجنود لكنهم احكموا قبضاتهم فوق أطراف جسده بقوة آلمته ، فتعالى صوته يستجديهم أن يسبغوا عليه من الرحمة شيئًا ، سرعان ما اطلق ذاك القائد الرصاصة الثانية لتستقر برأس زوجته .

كان قائدي في حاله يرثي منها يحاول الزحف نحو قتيلاه في جنون ، يصرخ القائد بجنون تبكِ له القلوب .

تقدّم نحوه ذاك القاتل قائلا له

" هذا جزاء ما فعلته بنا "

من ثم يركل ذاك القاتل بكل ما أوتي من قوة وجه قائدي المطروح ارضًا فيفقده وعيه .

أمر ممثل القيادة الجنود بحمل قائدي وتركه سجين في غياهب السجن من ثم أمر بتفرقه ذاك الحشد .

مرتّ ثلاث أيام على ذلك الحادث الأليم ، كنتُ أدخن لفافة التبغ كالمعتاد عند البوابة العتيقة يا الله قد فقد رفيقًا اشتقتُ لوجوده ، اتذكر كل اللحظات بيننا .

لم يبقِ لي سوي الذكري تؤنس وحدتي حقًا أشتاق لقائدي ورفيقي ، قد فقد رفيقي صوابه في غياهب السجن ، استحوذت عليه ذكري قتل زوجته وابنه دون أن يقدر على حمياتهم .

احتشد ذلك الحشد مجددًا يطالبون بفتح البوابة ، الأن قد وهنت قوتنا من قله الطعام فلا نستطيع ردعهم .

أين انت يا رفيقي لتساعدني على ردع ذلك الحشد !؟ اين انت يا صاحب القرار الصائب !؟

امرت الجنود بالتنحي جانبًا وترك ذلك الحشد يفتح البوابة ويذهب حيثما يشاء .

ها ذا فتحت البوابة العتيقة أخيرًا ، صرخ مَن كان في مقدمة الحشد عندما رأي تلك الهياكل العظميّة المتكومة أمام البوابة العتيقة .

هياكل عظميّة !! من أين جاءت !؟ نعم تذكرت لابد أنها تعود إلى الجنود الذين قتلوا عندما أمر قائدي بغلق البوابة .

لا بأس أزاح ذلك الحشد تلك الهياكل واستمروا بالخروج في ذات اللحظة التي تقدم نحونا العدو بوثب واثقة ، سنشهد اليوم أول ليالي الاحتلال .

أقول لكم أمرًا انا الواشي ، انا الوغد الخائن ، أقسم لكم لستُ اعلم كيف تخليت عن وطني !؟ كيف تخليتُ عن رفيقي الوحيد !؟ لعن الله المال الذي جعلني عبدًا وقبلتُ بخيانة وطني .

قد عاهدني العدو بالمال والسلطة عندما يحتل البلاد فكنتُ له مجيب وتخليتُ عن وطني ، كيف !!؟ كيف!؟ فقد عقلي اللعين ذلك وقبلت بالمعاهدة تلك .

لو كنت أعلم الغيب فما فعلت ذلك ، تلعثمت يداي بالكثير من الدماء ، دماء الجنود بالحرب ، دماء الجنود عند النفق ، دماء اسرة رفيقي وقائدي ، هناك الكثير من دماء تسببتُ بها .

عندما تعثرت قدماي عند صعودي المنحدر لم تكن صدفه ما كان هناك ما يدعي بالصدفة ، قد تعثرت عمدًا حتي يتعطل جهاز اللاسلكي فلا يستطع القائد عمر حاربي طلب الاستغاثة منا .

سعدتُ كثيرًا حينما سمعتُ خطة ممثل القيادة للانقضاض على العدو أقسم لكم أن الخطة كانت ستنجح لكني تذكرتُ حينها بأن العدو قد يرسل للقيادة بأنني الواشي حينها كنتُ سأنال العقاب ، لم يكن هناك فرصة للتراجع ، كان يجب أن أكمل المسير فأكملته حيثُ عدت إلى منزلي مهرولا لأبلغ قيادات العدو بأمر الخطة عبر جهاز اللاسلكي الذي اعطوه لي .

لم يكن هناك اي نية بجعل قائدي الواشي لكنه جعلني مضطرًا لفعل ذلك حينما طلب مني انتظره خارج الحجرة بعد أن قال لنا ممثل القيادة بأمر الخطة ، لا اعلم ماذا قال له القائد بشأن الواشي.

قد نشبت الحرب بيننا ذات اليوم ، ظننتُ القائد مازال يشك بي لذلك عزمتُ بالتخلص منه .

ذات اليوم ليلاً قد تسللتُ الى منزل قائدي حيث دسستُ بالمنزل المستندات والوثائق وجهاز اللاسلكي الذي كنت اتواصل به مع قيادات العدو فعندما وكزت قائدي بكعب سلاحي وعدت به الي المدينة ليس بغرض انني لا اريد أن اراه يقتل بل لجعله الواشي في نظر القيادة العسكرية .

كنتُ أدرك جيدًا أن القيادة ستشك بنا عندما علم العدو بشأن النفق وحاصرنا هناك ، لقائنا الاخير مع ممثل القيادة وشك كل منهم بالأخر همَ قائدي بالرحيل ورحل بالفعل لكني بقيتُ وحدثت ممثل القيادة بأنني اشك بقائدي حيثُ رأيت معه فجر اليوم قبل عبور النفق جهاز للاسلكي أخر لم يكن تابع لجيشنا لكني لم ابالي قائلاً لنفسي بأنني لم اري جيدًا بسبب ظلمة الليل ، تأكد أن القائد متواطئ معهم عندما اتيت به الي المدينة بعد أن سقط في المعركة هناك لم يشكرني بل انقض عليَ يسدد لي لكمات وركلات فعلمتُ حينها أنه كان يود الهروب وينضم للصفوف العدو .

هكذا الأمر إذًا واصبح القائد هو الواشي .

مذكراتي

أحمد عبد الحميد

24-1-1929

لم يهتد قلبه إلى سبيل الراحة رغم استشعاره بالأمان ، طفق يتحرك باضطراب في مسكنه . ساورته المخاوف ، واستيقظ ضميره من مرقده ، جن جنونه كصاحبه في غياهب السجن .

يطرق احدهم بابه في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، مَن ذلك الزائر الذي يأتي في ذاك الوقت !؟ اخذ يراوده ذلك السؤال إلى أن فتح الباب .

رمق ذلك الرجل المهندم الواقف على أعتاب داره ، ذلك الرجل المهندم ذو الحلة السوداء الذي يبدو انه في أواخر العقد الرابع من العمر ، قد بدت الشعيرات البيضاء تغزو فروة رأسه .

قال الراجل محيا " صديقي احمد عبدالحميد يا الله قد تغيرت كثيرًا عن أخر لقاء بيننا ، كيف حالك !؟ "

ولىَّ الفتي مدبرًا بدون أن يعقّب ليجلس على الأريكة ، دلف ذلك الرجل باب المنزل مغلقه خلفه جالسًا في المقعد المواجه لأريكه .

- أعلم بما تمر به ، قد مررت به سابقًا لكن اعدك اني سأخلصك من الشعور بالذنب الذي يراودك

اردف الفتي متهكمًا " كيف أيها المتحاذق !؟ قد تخليت عن وطني من أجل المال والجاه ، تخليت عن صديقي الذي فقد عقله الأن في السجن ، قد تسببتُ في قتل أسرته ."

- لست وحدك الذي خان وطنه

- كيف !؟

- ماذا تعرف عن أل عيسي !؟

اجابه الفتي مستنكراً " أل عيسي ما علاقتهم بالأمر !؟ "

زجرة الرجل قائلاً " قلتُ لك ما تعرف عن أل عيسي !؟ "

اصاب الحنق من الفتي مبلغًا عظيمًا مجيبًا " قد فقدوا ابنهم في الحرب منذُ ثلاثون عام ، لم يتحمل والده فراقه فمات بينما والدته فقدت صوبها ففي كل ليلة تنتظر امام دارها عوده ابنها ، لا تؤمن أن ابنها مات في الحرب "

ابتسم ذاك الرجل قائلا بصوت منكسر

" ها ذا ابنها عاد ، انا يوسف ابن أل عيسي "

- ماذا !؟ كيف!؟

- قد خدعنا رئيسكم السابق و أذاع في البلاد بأن هناك عدو مغير ، فجمع الجنود والعتاد وارسلنا لردع العدو لكننا اكتشفنا أن الأمر برمته خدعه . لم يكن هناك حرب كان يريد رئيسنا أن يحتل البلدة الأخرى لأنها رفضت مساعدته فاراد أن يثبت أنه قادر على احتلالهم ، قد هزمنا في الحرب واتخذتُ اسيرًا ... ثارت فكرة الانتقام بداخلي كنتُ سأفقد حياتي هباءً لذلك تعاونت مع العدو على بلادي . وعدني العدو بأطلاق سراحي إذا ساعدته على احتلال البلاد وها ذا نجح الأمر بفضلك يا عزيزي

- آ كان لقائنا صدفة !؟

- إذا أرد الحق لا لم يكن صدفة ، كان أمر مُخطط له وكنت أدرك أنك بحاجة للمال لذلك وعدك بالمال والجاه . قد قدمت لنا الكثير يا أحمد ونحن ممتنين لك حيث إن لم تنبأنا بشأن الخطة تلك لكنا منهزمون الأن .

رد الفتي بحنق " إذًا اين ما وعدتني به !؟ "

اعتدل الرجل في جلسته من ثم وقف ودنا بخطواته نحو النافذة مهمًا بإغلاقها .

استدار الرجل لينظر الي فتي الذي لايزال جالس على الأريكة سرعان ما اشهر الرجل بمسدسه مطلق الرصاصة لتستقر بقلب الفتي .

حدق الفتي نحو الرجل ثم نحو نافورة الدماء التي تتدفق من قلبه ، أخذ يشهق انفاسه الأخيرة بعفوية .

دنا ذاك الرجل من الفتي مُتَمْتِمٌ " جزاء الخائن الموت ، اظن اني سألحق قريبًا "

تمت

15-7-2020

مؤمن عصام